

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

روى الإمام أحمد عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة - أو: سحابة - غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزل للقرآن». أخرجاه في الصحيحين^(١). وهذا الرجل الذي كان يتلو هو: أسيدُ بن الحضير، كما تقدم في تفسير البقرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال». رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي. ولفظ الترمذي: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح^(٢)، وفي لفظ لأحمد ومسلم: «من قرأ العشر الأواخر»^(٣)، ورواه النسائي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»^(٤).

وقد روى الحاكم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد ﷺ؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحا بينا جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أى: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: ﴿قِيمًا﴾ أى: مستقيماً ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾

(١) المسند (٤ / ٢٨١) والبخاوي (٣٦١٤) ومسلم (٧٩٥ / ٢٤٠).

(٢) المسند (٥ / ١٩٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧) وأبو داود (٤٣٢٣) والنسائي في الكبرى (٨٠٢٥) والترمذي (٢٨٨٦).

(٣) المسند (٦ / ٤٤٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧). (٤) النسائي في الكبرى (١٠٧٨٤).

(٥) الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٨).

لذئذ﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذرهُ ﴿بئساً شديدًا﴾ عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الآخرة ﴿من لذئذ﴾ أى: من عند الله الذى لا يُعذب عذابه أحد، ولا يوتئ وثاقه أحد ﴿ويُخسر المؤمن﴾ أى: بهذا القرآن الذين صدّقوا بإيمانهم بالعمل الصالح ﴿أن لهم أجرًا حسنًا﴾ أى: مثوبة عند الله جميلة ﴿ما كُتِبَ فيه﴾ فى ثوابهم عند الله. وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أبدًا﴾ دائمًا لازوال له ولا انقضاء .

وقوله: ﴿ويُنذر الذين قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله ﴿ما لهم به من علم﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه واتفكوه من علم ﴿ولا لأبائهم﴾ أى: لاسلافهم. ﴿كُتِبَتْ كلمةٌ﴾: أعظم بكلمتهم كلمة، وهذا تشبيح لمقاتلتهم واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كُتِبَتْ كلمةٌ تخرج من أفواههم﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراءهم؛ ولهذا قال: ﴿إن يقولون إلا كذبًا﴾ .

وقد ذكر إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، إلى أجباز اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أجباز يهود فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول قروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا: فسألوه عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتهم عنه». ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها خير ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ بِأَمْرِ رَبِّي لَا تَخْلُفُ فِيهِ إِلَهٌ كَمَا تَخْلُفُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ﴾ الآية (الإسراء: ٨٥) .

﴿ فَلَمَّا كَفَتْ نَجَحَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿١٧٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١٧٨﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ٨)، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (النحل: ١٢٧)، وقال: ﴿لَمَّا كَفَتْ نَجَحَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (الشعراء: ٢٣). باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿لَمَّا كَفَتْ نَجَحَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً . قال قتادة: قَاتَلَ نَفْسَكَ غَضْبًا وَحَزَنًا عَلَيْهِمْ. أى: لا تأسف عليهم، بل ابغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإمّا يضل عبثاً، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزيّنة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فاعظروا ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» (١). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها.

وزهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَاعِبُونَ مَا عَلَيْنَا حِجْرًا﴾ أي: وأنا لمصيروها بعد الزيتة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكا ﴿صَعِيدًا جُرْزًا﴾: لا يثبت ولا يتنفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبيد. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئْتُوا أَمَدًا ﴿

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء. - أعجب من أخبار أصحاب الكهف. وقال ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال ابن عباس: الكتاب. وقال سعيد بن جبیر: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ١٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاث يفتنهم عنه، فهربوا منهم فَلَجَّوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترننا عن قوما ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا، أي: اجعل عاقبتنا رشداً، وفي المسند من حديث بَسْرِ بْنِ أَبِي أَرْطَاةَ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» (١).

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِئْتُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية .

(١) المسند (٤ / ١٨١) وقال الهيثمي في الزوائد (١٠ / ١٨١): رجاله ثقات .

﴿ تَحَنَّنْ نَفْسَ عَلَيْنَا يَا هُم بِالْحَقِّ إِنَّمَنْ فَتِيَةً آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُّوْا قَوْمَنَا أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ فَنَشَرْنَا لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَرَيْبَئِى لَكُمْ مِنَ الْمَرْكُومِ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

من هنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم آقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابا، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا. قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى أذان بعضهم القرطبة يعنى: الخلق، فآلهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم ﴿آمنوا برَبِّهِمْ﴾ أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَزَدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره، بمن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزَدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَوَزَدْنَاهُمْ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيُزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايئتهم لهم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدبيتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وماداتهم، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى تعليقا، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجتدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وأخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ (١).

والفرض: أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يلدى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شىء. فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإنى رأيت ما قومى عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذى يستحق أن يعبد ولا يشرك به شىء (٢) هو الله الذى خلق كل شىء: السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا بدأ واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم،

(١) البخارى (٢٣٣٦) ومسلم (٢٦٣٨ / ١٥٩).

(٢) جاءت فى المطبوعة والمخطوطة على الصب « شيئا » وهو خطأ.

فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبُّنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولن: لنفي التأييد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لانا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ أى: هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من ربة قومهم، وأجلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتنة فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتنة» (١) ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك فى قوله: ﴿وَإِذْ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: وإذ فارتقموهم وخالقتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأديانكم ﴿فَأَوَّوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أى: يسيط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُخَيِّضْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذى أنتم فيه، ﴿مَرْفُقًا﴾ أى: أمراً ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خيرهم. كما فعل بنيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المدركون من قريش فى الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يرون عليه، وعندها قال النبى ﷺ حين رأى جزع الصديق فى قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمي - لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» (٢)، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَوَّرُوهُ فَقَدْ نُصِرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصه هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّ النَّاسَ يَنْصَرِفُونَ﴾

أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذات اليمين﴾ أى: يتقلص الفراء يمينه، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: ﴿تزاور﴾ أى: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق

تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا غُرِبَتْ ثَمَرُضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ أى: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفئى ميمناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين ما ذكرناه والله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ ثَمَرُضُهُمْ ﴾ : تركهم.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أى البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً والله أعلم بأى بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه، فقد قال عليه السلام: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به » (١). فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ تميل ﴿ ذَاتَ اليمينِ وَإِذَا غُرِبَتْ ثَمَرُضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى: في متسع منه داخلأ، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾.

ثم قال: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الآية، أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هده الله اهتدى، ومن أضله فلا هادى له.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَانًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَانًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ قال ابن عباس: لو لم يقبلوا لاكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الفناء، وهو التراب. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنهَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد في الصحيح (٢). وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحة الاختيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستدها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى: أنه تعالىلقى عليهم المهابة

بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما لبسوا من المهابة والذعر، لثلاث يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة .

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْتِغَاؤُكُمْ يَوْمَ بَرِّكُمْ هُنْدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾ ؟ أى: رقدتم ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم كان آخر نهار؛ ولهذا استدرکوا فقالوا: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ أى: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَرِّكُمْ ﴾ أى: فستكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبروا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فنصدقوا منها وبقي منها؛ فلماذا قالوا: ﴿ فابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَرِّكُمْ هُنْدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها. ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ وَتَلَوْنَا فِى الْكَلْبِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَاىَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿ قَدْ لَفِغَ مِنْ تَوَكُّبٍ ﴾ [الاهلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيَّبُ المَالُ وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه ركا الزرع إذا كثر، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشراته وإيابه، يقولون: وليخف كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أى: ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾. ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أى: إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيولهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِفَّا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَسْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ مِنْكُمْ مَسْجِدًا مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ ﴾ أى: اطلعنا عليهم الناس ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك. قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى

بلاد الروم، فأروا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم ببيأتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَّزِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْهَرُمْ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَئِبُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْهَرِهِمْ لَنَنْخِذَنَّهُمْ سُجُدًا﴾. حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبى ﷺ قال: «لئن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد» (١) يحذر مافعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شىء من الملاحم وغيرها .

﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّنَا كَلَّمَهُمْ وَيَقُولُونَ سَادَسٌ سَادِسُهُمْ كَلَّمَهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَاتَّيَمَنُ بِهِمْ كَلَّمَهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمِ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرًا وَلَا تَنْتَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أى: قول بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَإِتَّيَمَنُ بِهِمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير، عن عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه آسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه .

وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كليهم نظر فى صحته، والله أعلم؛ فإن غالب ذلك مَتَلَقَى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمِ إِلَّا مِرَّةً ظَاهِرًا﴾ أى: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَنْتَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أى: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِيَّيَ فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاؤِي إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشْدًا ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان ابن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية: سبعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله» لم يحنث، وكان دركاً لحاجته»، وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» (١).

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غدأ أجيبكم». فاتخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل: معناه: إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. وعن ابن عباس في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ في ذلك. ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث. قال ابن جرير، ونص على ذلك: لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكمفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الالتي بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾. وقوله: ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشْدًا ﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

﴿ وَلِيَسْئَلُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَسْئَلُوا لَهُمْ عِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَصْبَرَ بِهِ، وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ. مِنْ وَلِيِّيَ وَلَا تَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبت أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية، وهي

ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقمريّة إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَأَزَادُوا تِسْعًا﴾ .

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لُبُّوا﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لُبُّوا لَهُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف .

والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ إِلَهٍ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس .

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾
وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتْتَحِدًا﴾ ملجأ. قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله. كما قال تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا يَلْفُتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مُعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللون، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، ويفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ﴾ الآية [الانعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

وروى مسلم في صحيحه: عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترثون علينا!. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ . انفراد بإخراجه مسلم

دون البخارى (١) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاورهم إلى غيرهم، يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ مِنْهُنَّ أَنْفُسًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ وَأَتَمَّعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أى: اعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغتبط بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ وَلِهُ رِزْقٌ يَكْفُرُ وَآلِهَةٍ ﴾ [طه: ١٣١] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثِبُوا نِعَالُوا يُعَاثِبُوا كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ﴿

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى: ارصدنا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أى: سورها .

وقوله: ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثِبُوا نِعَالُوا يُعَاثِبُوا كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس: «المهل»: الماء الغليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد: هو كالدوم والقيح . وهذه الأقوال ليس شيء منها ينقى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار ؛ ولهذا قال: ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقرته من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿ بئس الشراب ﴾ أى: بئس هذا الشراب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] ، وقال تعالى: ﴿ تَسْقَىٰ مِنْ عُيُنِ آتِنَا ﴾ [الناشئة: ٥] أى: حارة، كما قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمِ آتِنَا ﴾ [الرحمن: ٤٤] ، ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أى: وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَشَابِهِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَتِمُّ السُّرُورُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ﴿

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، نثى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ والعدن: الإقامة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أى: من تحت غرفهم وسائر لهم ، قال فرعون: ﴿ وَهَلْهُنَّ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١] . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أى: من الحلية ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وقال فى المكان الآخر: ﴿ وَلَوْلَا وَبَاهُكُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] وفضله هنا فقال: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس: ثياب رفيع رقيق

كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريت.

وقوله: ﴿ مُكَيِّبٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾: الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا أكل متكاً»^(١) فيه القولان. والارائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة، والله أعلم. ﴿ نِعْمَ الثُّرَابُ وَحَسَّتْ ثُرَتُهَا ﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿ وَحَسَّتْ ثُرَتُهَا ﴾ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بئس الثُّرَابُ وَسَاءَتْ ثُرَتُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا ثَجْبَةً وَسَلَامًا. خَالِدِينَ فِيهَا حَسَّتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّذَلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿١﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتْ أَكْطَهُمَا وَلَمْ نَطْلُمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢﴾ وَكَانَ لَمْ تَمُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْسًا ﴿٣﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٥﴾

يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، واقتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مشتم مقبل في غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتْ أَكْطَهُمَا ﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿ وَتَمَّ نَطْلُ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴾ أي: والآنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا. ﴿ وَكَانَ لَهُ تَمْرٌ ﴾ قيل: المراد به: المال. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا ﴿ فَقَالَ ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين: ﴿ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويتراس: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْسًا ﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - والله - أمانة الفاجر: كثرة المال وعزة النفس.

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبيره وإنكاره المعاد ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والآنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تلتف، وذلك لقله عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابيه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالأخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي: كائنة ﴿ وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرداً إلى الله، ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقال: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآبَائِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة، تآلى على الله، عز وجل.

﴿ قَالَ لَمْ صَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿١﴾ لَكِنَّا هُوَ

اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وُؤَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَمَّ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما آجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز: ﴿اَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية ؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جمود ربه، الذي خلقه وابتدا خلق الإنسان من طين وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَهْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية (البقرة: ٢٨٠)، أى: كيف تمجدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمشأته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا قال: ﴿ لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: أنا لا أقول بمقاتك، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية ، هذا تحضيض وحث على ذلك، أى: هلا إنا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت فى الصحيح ، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «إلا ادلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!» .

وقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفتى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعتها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أى: بلقماً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقوله: ﴿ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا﴾ أى: غائراً فى الأرض، وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاءُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال هنا: ﴿ أَوْ يُصْبِحُ مَاءً غُورًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه .

﴿ وَأَحِطْ بِشَرِّهِ فَاصْبِحْ يَلْبَسُ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤١﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ يَفْتَهُ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٢﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَحِطْ بِشَرِّهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحساب على جنته، التى اغتر بها والتهه عن الله، عز وجل ﴿فَاصْبِحْ يَلْبَسُ كَتَبَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الاموال التى اذهبها عليها

﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ ﴾ . أى : عشيرة أو ولد ، كما افتخر بهم واستعز ﴿ بِبَصْرُوتهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ المعنى : هنالك الموالاتة لله ، أى : هنالك كُمل أحد من مؤمن أو كافر ، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، و ﴿ الْحَقُّ ﴾ نعت لله عز وجل ، كقوله : ﴿ ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْوَالِدِينَ وَالْأَبْنَاءُ ﴾ [الأنعام : ٦٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى : جزاء ﴿ وَخَيْرٌ عُقَابًا ﴾ أى : الاعمال التى تكون لله ، عز وجل ، ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة رشيدة ، كلها خير .

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ ﴾ يا محمد للناس ﴿ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى زوالها وفنائها وانقضائها ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أى : ما فيها من الحَبِّ ، فشب وحسن ، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿ أَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابساً ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ أى : تفرقه وتطرحه . ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ أى : هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ الآية [يونس : ٢٤] ، وقال فى الزمر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ الآية [الزمر : ٢١] . وقال فى سورة الحديد : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الآية [الحديد : ٢٠] . وفى الحديث الصحيح : « الدنيا حلوة خضرة (١) » .

وقوله : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، كقوله : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] . أى : الإقبال عليه والتفرغ لعبادته ، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم ، والشفقة المفرطة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، عن : ﴿ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ ما هى ؟ فقال : هى لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . رواه الإمام أحمد عن الحارث مولى عثمان قال : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء فى إناء ، أظنه أنه سيكون فيه مد ، فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ، ثم قال : « من توضأ وضوئى هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر ، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غُفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر ، ثم صلى العشاء غُفر له ما بينها وبين المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح ، غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهنَّ الحسنات

يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . تفرد به^(١). وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنَّ الباقيات الصالحات. روى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: «يخ بيخ خمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده». وقال: «يخ بيخ خمس من لقي الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب»^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الاعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسِيْرُ الْجِبَالِ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعُ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمَجْرُمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صِفْرَةً وَلَا كِبْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدَّوْا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَنُصِرُ الْجِبَالُ سُورًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْشَى جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستويًا لا عوج فيه ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا وادى ولا جبل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلّم لحد ولا مكان يوارى أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية .

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الراعدة: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. وقوله: ﴿وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨]، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقرير للمتكبرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن .

وقوله: ﴿وَوَضِعُ الْكِتَابِ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير،

(١) المسند (٥١٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٢٣٧/٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٩١): «رجاله رجال الصحيح» .

والصغير والكبير ﴿ قَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيَلَّتْنَا ﴾ أى: يا حسرتنا وويلنا على ما فرط في أعمارنا ﴿ مَا لِهَذَا كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغراً ﴿ إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أى: ضبطها، وحفظها. وقوله: ﴿ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا ﴾ الآية [ك: عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ يَبْنِي الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المخبات والضمائر. روى الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به». أخرجاه في الصحيحين (١).

وقوله: ﴿ وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي، ويؤخذ فيها الكافرين، وهو الحاكم الذى لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَّئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِكُفْرَانِكُمْ إِلَّا ظُلْمًا لَّكَ وَسَيَأْخُذُكَ مِنَ الْأَلْبَابِ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿ وَتَنْصَعُ الْمَوَازِينُ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ إلى قوله: ﴿ حَاسِبِينَ ﴾ [الانبيا: ٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَسْحَدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

يقول تعالى منها بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولايبهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتدأه، وبالطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة البقرة (٢) ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ أى: سجود تشریف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتَوٍ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (٣). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل فى خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أى: إنه خلق من نار، كما قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الاعراف: ١٢، وص: ٧٦]. قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل ليظنر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غِيبَةٌ عن كل ما عدها من

(١) المسند (٣ / ١٤٢) والبخارى (٣١٨٦) ومسلم (١٧٣٧ / ١٥).

(٢) عند الآية رقم (٣٤).

(٣) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠).

الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يتقون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبنوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر ﷺ، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس ماوهم، وقد فعل.

وقوله: ﴿ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن فسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها: إذا خرجت منه للميث والفساد. ثم قال تعالى مفرعاً ومويخاً لمن اتبعه واطاعه: ﴿ اتَّخِذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ الآية، أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿ بئس لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والاشقياء فى سورة يس: ﴿ وَأَمَّا يَوْمَ يَمُوتُ الْكَافِرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَظَلَمَ تَكْوِينًا تَغْلِبُونَ ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢].

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضِلِّينَ

عَضْدًا ﴿

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دونه عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ الآية [سبا: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضْدًا ﴾ قال مالك: اعواناً.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥١﴾ وَرَأَى

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً: ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، يتخذونكم بما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ كما قال: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا لَمْ يَنْفَعِهِمْ ﴾ الآية [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِكَيْتُمْ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ جِدًّا ﴾ [مرم: ٨١، ٨٢]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ مهلكاً. والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص

لاحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

وقوله : ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى : إنهم لما عاينوا جهنم حين جرى بها نقاد سبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحمقوا لا محالة أنهم مواقيعها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب وإخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى : ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

يقول تعالى : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الامور، وفصلناها، كجلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى . ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجاداة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . روى الإمام أحمد عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال : «ألا تصدان؟» فقلت : يا رسول الله، إنما انفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا أَنْذَرُوا هُزُورًا ﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة فى قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق بين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً، كما قال اولئك لبيهم : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، وآخرون قالوا : ﴿إِنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] ، وقالت قريش : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال : ٣٢] ، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر : ٦٠ ، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك .

ثم قال : ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ﴾ من غشيانهم بالعذاب واخذهم عن آخرهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى : يرونه عياناً مواجهة، ثم قال : ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى : قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومبشرين لمن كذبهم وخالفهم . ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى : ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا أَنْذَرُوا هُزُورًا﴾ أى : اتخذوا الحجيج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُورًا﴾ أى : سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتُمُ لَمَّا ظَلَمْتُمْ وَجَمَلْنَا لِبَهْلِكُمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى: وإى عباد الله اظلم عن ذكر آيات الله ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ﴿ إِنَّا جَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أى: قلوب هؤلاء ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أى: أغطية وغشاوة ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى: لتلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى: صمما معنوياً عن الرشد ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ . وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أى: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ ﴾، كما قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات فى هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويفقر، وربما هدى بعضهم من النى إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا ممدل.

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتُمُ لَمَّا ظَلَمْتُمْ ﴾ أى: الاسم السالفة والقرون الخالية اهلكتهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وَجَمَلْنَا لِبَهْلِكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول واعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَآ آتِيحُ حَقًّا أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبِيًّا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِنَّا غَدَاءٌ نَأْ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلْمَنَةً مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبب قول موسى لفتاه - وهو: يوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿ لَآ آتِيحُ ﴾ أى لا أزال نسايراً ﴿ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أى: هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب. وقال محمد بن كعب القرظى: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ فى لغة قيس: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال ابن عباس قوله:

﴿أَرَأَيْتُمْ حَبًّا﴾ قال: دهرأ .

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفّر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت في البحر فجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السرب في الأرض. قال ابن عباس: صار اثره كأنه حجر.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذى نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح فى أحد القولين .

فلما ذهبنا عن المكان الذى نسيه فيه مَرَحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَقَدْ آتَيْنَا لَقْدًا لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أى: الذى جاورا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى: تعباً ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وقرأ ابن مسعود: « أن أذكر له»، ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ﴿أى: هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمَا﴾ أى: طريقهما ﴿فَصَصَا﴾ أى: يقصان آثار مشيها، ويقفوان اثرهما. ﴿فَرَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخارى عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً الْبِكَايَلِي يزعم أن موسى صاحب الخضر، عليه السلام، ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا ابي بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فُسْتُل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب، وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكتل، فحيشما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتاً، فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه، فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرىاً، وأمسك الله عن الحوت جربة الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليتهما، حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه: ﴿آتَيْنَا غَدَاً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاور المكان الذى أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرىاً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَرِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا يقصان اثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجَّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وآنى بأرضك السلام!». فقال: أنا موسى. فقال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، آيتك لتعلمنى مما علمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مِنِّي صَبْرًا﴾، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لاتعلمه انت، وانت على علم من علم الله علمك الله لا

أعلمه . فقال موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر : ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ . فانطلقا يمسيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلّمهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتفرك أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ . قَالَ لَا تَأْخُذْ بِنِهَايَةِ نَفْسِي وَلَا تَرْفَعْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : «فكانت الأولى من موسى نسياناً» . قال : وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرَةً ، أو نقرتين ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمسيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقلعته بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟! قال : «وهذه أشد من الأولى» ، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْهُ فإِنَّهُ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعنا أهلها فأبأ أن يضيّفوهما فوجدنا لهما جداراً يريد أن يفضّهما﴾ أي : مانلاً [فقام الخضر فأقامه بيده] ، فقال موسى : قوم اتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ . فقال رسول الله ﷺ : «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خيرهما» . قال سعيد بن جبيرة : كان ابن عباس يقرأ : «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً» وكان يقرأ : «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» (١) .

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
 وَكَيْفَ نَصِّرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى ، عليه السلام ، لذلك العالم ، وهو الخضر ، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ سؤال تلتف ، لا على وجه الإلزام والإجبار . وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله : ﴿أَتَيْتُكَ﴾ أي : أصحبك وأرافقك ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا﴾ أي : بما علمك الله شيئاً ، استرشد به في أمري ، من علم نافع وعمل صالح . فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى : ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي : إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك ، لأنني على علم من علم الله ، ما علمك الله ، وأنت على علم من علم الله ، ما علمنيه الله ، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وَكَيْفَ نَصِّرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ ، فإنا نعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلمت على حكمته ومصالحته الباطنة التي اطلمت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ أي : موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي : على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي : ولا أخالفك في شيء . فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أي : ابتداءً ﴿حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي : حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

(١) البخاري (٤٧٢٥) ومابين المقوفين ضبطناه منه .

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِن أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يتدنه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا فى السفينة. فلما استقلت بهم السفينة فى البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من الواحها، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكرأ عليه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾. وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: منكرأ. فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الامور التى اشترطت معك الا تنكر على فيها، لانك لم تحط بها خيراً، ولها دخل هو مصلحة، ولم تعلمه انت ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِن أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق على وتشدد على .

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿فانطلقا﴾ أى: بعد ذلك ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الاول، ويأدر فقال: ﴿ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنت، ولا عملت إنما بعد، فقتلته؟! ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أى: ظاهر النكارة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الاول ؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾ أى: قد اعذرت إلى مرة بعد مرة.

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَجِدَنَّ أَلَيْكُمُ الْجِدَارَ مَرْجُومًا ﴿٧٤﴾ فَذَكَرْنَا إِلَيْهِ آيَاتِنَا لَعَلَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ السَّبِيلِ ﴿٧٥﴾ فَتَوَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّا وَقَّعَ فِي سَعْدِهِ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الاولتين ﴿حتى إذا آتيا أهل قرية﴾ عن ابن سيرين أنها اليلة ﴿فأبوا أن يضيقوها فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانتقاض هو: السقوط. وقوله: ﴿فآقامه﴾ أى: فرده إلى حالة الاستقامة، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لو شئت لتجدنن أليكم الجدار مرجوما﴾ أى: لاجل أنهم لم يضيقونا كان ينبغى ألا تعمل لهم مجاناً ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أى: لانك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سأبتك بتأويل﴾

أى: بضير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ مَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، عليه السلام، على باطنه فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أى: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فاردت أن أعيبها، لأرده عنها لعيبها، فيستعج بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء يتصفون به غيرها.

﴿وَأَمَّا الْفُلُوكُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً سَبْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً». رواه ابن جرير^(١)؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى: يحملهما حبه على متابعتهم على الكفر. قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ أى: ولدنا أركى من هذا، وهما أرحم به منه.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] معنى: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقاتدة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت الستة به. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحا،

فَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ : ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ؛ وقال فى الغلام : ﴿فَارَادْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا خَيْرًا مِنْهُ﴾ وقال فى السفينة : ﴿فَارَادَتْ أَنْ أُبْعِيهَا﴾ ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أى : هذا الذى فعلته فى هذه الاحوال الثلاثة ، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، ووالدى الرجل الصالح ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ لكنى أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر ، عليه السلام ، مع ما تقدم من قوله : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبَدِنَا وَعِلْمًا مِنْ لَدُنَّا عَلِيمًا﴾ ، وقال آخرون : كان رسولاً . وحكى النوى وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه ، وذكروا فى ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث ، ولا يصح شيء من ذلك . ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانباء : ٣٤] ويقول النبى ﷺ يوم بدر : «اللهم إن تهلك هذه العصابة ، لا تعبد فى الارض» (١) ، ويأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه . ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ وأصحابه ؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقليين : الجن والإنس ، وأخبر قبل موته بقليل : أنه لا يبقى عن هو على وجه الارض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف ، إلى غير ذلك من الدلائل . وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «إنما سعى الخضر ؛ لأنه جلس على قروة ، فإذا هى تهتز من تحت خضراء» (٢) .

والمراد بالقروة ههنا : الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل : المراد بذلك وجه الارض .

وقوله : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا نَمْ تَسْمَعُ عَلَيْهِ صَيْرًا﴾ أى : هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال : ﴿تَسْمَعُ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال : ﴿تَسْمَعُ﴾ فقابل الانتقال بالانتقل ، والأخف ، بالأخف كما قال تعالى : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى اعلاه ، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف : ٩٧] ، وهو أشق من ذلك ، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب : أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٠﴾ إِنَّا كُنَّا لَمُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا بَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَسَبِيحًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى لنبى ﷺ : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يامحمد ﴿عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ أى : عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الارض ، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف . كما ذكر الأزرقي

وغيره، أنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم، عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، ولله الحمد. قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقد سئل على، رضى الله عنه، عن ذى القرنين، فقال: كان عبداً ناصحاً الله فناصره، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنيه فمات، فسمى ذا القرنين. ويقال: إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾: يعنى علماً. وقال معاوية بن أبي سفيان لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى ٩! فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾. وهذا الذى أنكروه معاوية على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية فى الإنكار؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقى فى أسباب السموات. وقد قال الله فى حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أى: بما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أى: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرؤساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتى من كل شيء بما يحتاج إليه مثله سبياً، والله أعلم.

﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلْبًا يَنْذِرُ الْقُرْنَيْنِ إِيمًا أَنْ تَعْدِبَ وَإِنَّا لَنَنجِدُنَّ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٥﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّكْرًا ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا سُكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ يعنى بالسبب: المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفى رواية عن مجاهد: قال: طرفى الأرض. وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالها. وقال سعيد بن جبیر فى قوله: ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة والسدى. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه

لا تفارقه . والحمة مشتقة - على إحدى القراءتين - من «الحماة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْطَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس. وقد تقدم بيانه. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى . وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب . قلت: ولا منافاة بين معنيهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و«حمة» فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأخبار وغيره .

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى: أمة من الأمم . ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُحَدِّثُ فِيهِمْ حَسَنًا ﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكثه منهم ، وحكمه فيهم، وأظفروه بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى . فصرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه فى قوله: ﴿ أَمَا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى: استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقوله: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ لِيُعَذِّبَهُ عَذَابًا تَكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيماً اليماً . وفى هذا إثبات المعاد والجزاء .

وقوله: ﴿ وَأَمَا مَنْ آمَنَ ﴾ أى: تابعنا على مانعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند الله، عز وجل ﴿ وَسَتَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً .

﴿ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ﴾

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أى: أمة ﴿ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى: ليس لهم بناء يكتهم، ولا أشجار تظلمهم وتسترهم من حر الشمس . وقوله: ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ﴾ قال مجاهد، والسدى : علماء، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شىء، وإن تفرقت أهمهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥٠]

﴿ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿ ءَأَتُونِي رُبًّا لِّلْعَلِيدِ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يا جوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن الله تعالى يقول : يا آدم . فيقول: لبيك وسعديك . فيقول: ابعد

بَعَثَ النَّارَ. فيقول: وما بَعَثَ النَّارَ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فيحشد شيبب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرناه: يأجوج ومأجوج»^(١).

روى الإمام أحمد، عن سَمُرَةَ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «وَكَدُّ نُوْحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامُ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامُ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثُ أَبُو التُّرْكِ»^(٢). فقال بمض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سما هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغى وفساد وجراءة.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن عباس: اجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه، حتى يجعل بينه وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعبق وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرًا مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ الآية [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي آتاني فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بمملككم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ والزبر: جمع زبرة، وهي القطعة منه، وهي كاللبننة ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنَا بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ﴾ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: اجع عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قَالَ آتُونِي أَلْفَ عِلْفَ قَطْرًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ مِنَ الْعَقْرِ﴾ [سبا: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد للحجر. وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينتموه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللين والعمل في برج هناك. وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شامق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من ستين، وشاهدوا أموالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَفَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَاءَهُ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْضٍ وَنَفِخْنَا فِي الصُّورِ فَيَجْمَعُهُمْ جَمْعًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَفَعُوا أَن

(١) البخارى (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢٢ / ٣٧٩).

(٢) المسند (٥ / ٩) والترمذى (٣٩٣١)، وقال: «حسن».

يُظهِرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿ وهذا دليل على أنهم لم يقدرُوا على نقبه، ولا على شيء منه. روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: « لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا. وحلَّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثرت الخبيث ». هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخرجه (١).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أي: ساواها بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: مساويًا للأرض ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي: كانت لا محالة.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أي: الناس يومئذ: أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فُصِحَّتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كَلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾. واقترب الوعد الحق ﴿ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

وقوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾: والصور كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه»^(٢)، والذي ينفخ فيه إسرائيلي، عليه السلام، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسينا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٣). وقوله: ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم. وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف رمام، مع كل رمام سبعون ألف ملك [يجرونها] »^(٤).

(١) المسند (٦ / ٤٢٨) والبخاري (٧١٣٥) ومسلم (٢٨٨٠ / ١).

(٢) الترمذي (٢٤٣٠)، وقال: « حديث حسن ».

(٣) الترمذي (٢٤٣١) وقال: « حديث حسن ».

(٤) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) وما بين المعقوفين ليس في المطبوعة والمخطوطة، وأثبتناه من مسلم.

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أى: تغافلوا وتعاموا وتصامعوا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِبْضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الرعر: ٣٦]، وقال ههنا: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أى: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

ثم قال ﴿أَفَغِيبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ ذُرِّيَةِ أَوْلِيَاءٍ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، ويتضمنون به ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿٣﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿٤﴾ ﴾

روى البخارى عن مُصَنَّبٍ قال: سألت أبى - يعنى سعد بن أبى وقاص - عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾: أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنت، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى الله عنه، يسميهم الفاسقين^(١). وقال على بن أبى طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن على: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْتِيهِ خَاشِعَةً عَامِلَةً نَاصِبَةً . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الناسية: ٢ - ٤] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ مَاءً مَثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أى: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فسره فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِحَسَنَاتِهِمْ صُنْعًا﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أى: لا ننقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير. روى البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «أقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» ورواه مسلم^(٢). وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى: إنما جازيناكم بهذا الجزاء، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ

عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به أن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية، وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وفي الصحيحين: «إذ سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»^(١). وقوله: ﴿نَزَلًا﴾ أى: ضيافة، فإن النزول هو الضيافة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً ﴿لَا يَتَّوْنُ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أى: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، وفي قوله: ﴿لَا يَتَّوْنُ عَنْهَا حَوْلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا ظعنأ ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أى: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَمْعَةَ أَنْهَارٍ مَا نَفَدْتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾. يقول: لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يشئ عليه كما ينشئ، حتى يكون هو الذى يشئ على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَإِذْ قَدْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾

يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أنه كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق فى نفس الامر، لولا ما أطلعتنى الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ الذى ادعوكم إلى عبادته ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أى: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن

(١) البخارى (٧٤٢٣) ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٧٨) إلا للبخارى.

يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، يرويه عن الله، عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك». تفرد به من هذا الوجه (١). وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا هل محمدون عندهم جزاء» (٢).

(١) المسند (٧٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) المسند (٤٢٨ / ٥) وقال الهيثمي في الزوائد (١ / ١٠٢): «رجال رجال الصحيح».